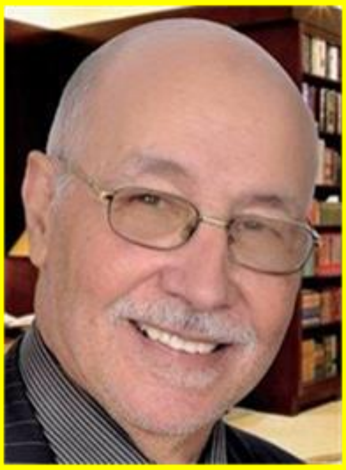


المصطفى حميمو

صراع بين القيّم على قيادة العالم

في عالم يتقاسم فيه العملاقان، الصين والغرب، التفوق والتقدم السريع في المجال العلمي والتكنولوجي والاقتصادي والعسكري، لا يمرّ المراقب من دون أن يلحظ التباين العميق بين أسلوب كل منهما في التعاطي مع بقية شعوب الأرض. يظهر له أن أحدهما يكتفي بأن يبني ذاته بهدوء ويصنع حضارته بالصبر ويتعامل مع غيره بمنطق التعاقد والتوافق. بينما الآخر لا يهدأ له بال حتى يفرض إرادته وسيطرته على غيره ويحوّله إلى تابع يخدم مصالحه تحت طائلة التهديد بالعقوبات، وهو المُحصّن بقوته من أي عقاب مهما فعل.

فما الذي يفسّر، يا ترى، ذلك التضاد في السلوك مع الآخر؟ أهي حقا الإيديولوجيات التي تحكم المصالح الاقتصادية ونظام الحكم عند كل منهما؟ أم أن الجواب يكمن فيما هو أعمق من ذلك وبكثير؟ ألا يكمن بالأحرى في الفرق بين الأساطير العتيقة والمؤسسة لمنظومة القيم السائدة هنا وهنالك ؟

فإذا ما سلّمنا بالفرضية الثانية سيجد من يبحث في تاريخ الصين أنه منذ أن سلمت أساطيرها الوثنية العتيقة بأن الإنسان خُلق من طين على يد الإلهة رؤوفة 女娲 *Nüwa*، ظلت شعوبها تتواصل في مخيالها الجمعي بفكرة كون الإنسان والطبيعة هما من جوهر واحد وأن نظام مكارم الأخلاق ينبغي ألا ينفصل عن النظام الكوني المحكم في التناغم بين مكوناته من أصغر درة فيه إلى أكبر أجرامه. فكذلك ينبغي أن تكون عن طواعية الأسرة والدولة والمجتمع صُورا مصغّرة لنفس مكونات الكون على أنها مجرد أجزاء منه. فالطاعة للمسؤول مثلا في كل منها لا تلغي الرحمة عنده تجاه الأتباع، بل تؤكّدها. وهكذا نشأ فكر الحكيم الصيني كونفوشيوس، الذي جعل الفضيلة أساس الحكم واعتبر الحاكم خادماً للأمة لا مالكاً لها. ووضع الإنسان الأسطوري الكامل والمتكامل كمثال أعلى من حيث لا هو بالقوي القاهر ولا بالغني المتكبر بل الحكيم المتبصر.

في المقابل وبالبحث يجد المراقب أن الرجل الأسطوري المثالي في الموروث الثقافي الغربي يتأرجح بين أشيل *Achille*، رمز القوة والكرامة، وأوديسيوس *Ulysse*، بطل الذكاء والحيلة. ومع مرور الزمن غلب في منظومة القيم الموروثة منها، نموذج *Ulysse*: الرجل العقلاني والبراكماتي الذي لا مانع عنده من مواجهة كل التحديات بالمكر والحيل واستعمال القوة عند الاقتضاء، وهو ما زكّاه لاحقًا الفكر الميكيافيلي. وتستمد هذه الرؤية جذورها أيضًا من آلهة الأساطير اليونانية الرومانية مثل *Zeus* و*Aphrodite* وغيرهما، الذين تجسدت فيهم غلبة الصفات البشرية العادية

كالطموح والحسد والغيرة والصراع، مما رسّخ قبول فكرة أن الخطأ والمناورة والمناكفة هي كلها جزء طبيعي من النظام الكوني ولا عيب في أن تكون الغلبة للأقوى.

ففي روما العتيقة على سبيل المثال، ظهرت بوضوح طبقة النبلاء، من درية الآباء المؤسسين *patriciens*، الذين احتكروا السلطة والثروة، واستضعفوا من تحتهم من طبقة العوام *les plébéiens* الذين بالرغم من كونهم أحرارا ظلوا يستغلون كالعبيد، حتى فرضوا أنفسهم وانتزعوا حقوقهم من بعد صراع طويل ومرير. لكن من دون قلب نفس منظومة القيم التي عانوا منها. فتبناها الجميع نبلاء وعوام، وتعاملوا بها كقوة إمبريالية في حق غيرهم من حولهم، بل من حول كل البحر المتوسط إلى وسط وشامل أوروبا. زد عليها المغامرات الإمبريالية اليونانية تحت قيادة الإسكندر الأكبر التي امتدت إلى مصر جنوباً ونهر السند في شمال غرب الهند، حيث ما توقفت حملته العدوانية إلا بعد تمرد جيشه ورفضه التوغل أعمق في شبه القارة الهندية. وكل الحملات الإمبريالية الغربية اللاحقة تدخل في قالب نفس السياق.

فقط في القرن العشرين وعلى سبيل المثال، فإن معظم الدول الغربية، خاضت عدداً كبيراً من الحروب العدوانية الكبرى والصغرى والطاحنة فيما بينها أولا، بما في ذلك الحربين العالميتين، ثم امتدت ضد معظم باقي شعوب العالم مهما بعدت أراضيهم شرقا وغربا وجنوبا، ولأغراض استعمارية وجيوسياسية. وما يعانيه الشعب الفلسطيني حتى يومنا هذا على أرضه، ومن معه من شعوب المنطقة من حوله، هو من تبعات الحرب العالمية الأولى ومخلفاتها الاستعمارية، بمقتضى وعد بلفور المشؤوم، والممتدة منذ أكثر من قرن من الزمن وحتى اليوم. أما الصين، فقد كانت معظم نزاعاتها الخارجية نزاعات حدودية ومحدودة مع جيرانها ويغلب عليها الطابع الدفاعي، مثل حربها مع الهند عام 1962، وحربها مع فيتنام عام 1979.

وهكذا بخلاف الأساطير الصينية، الأسطورة الإغريقية-الرومانية مجدت القوة واعتبرت الآخر خصما بل حتى عدواً يجب إخضاعه وبلاده أرضاً جديدة يجب استعمارها وضمها للإمبراطورية. بينما الأسطورة الصينية نظرت إلى الآخر كجزء من نظام كوني أكبر لا ينبغي كسره بل فهمه وإدماجه. فلم تخرج الصين يوماً لغزو باقي القارات باسم التفوق العرقي أو القيمي أو المصلحي، اللهم للدفاع عن حدودها. فبقيت، بالرغم من قوتها، مشدودة إلى مركزها الداخلي ولم تفقد بوصلتها الأخلاقية التي ورثتها من أسطورتها الأولى وترسخت في وجدان شعوبها وتعاملت وفقها مع جيرانها، الذين على العكس كانوا هم الذين يهاجمونها، فبنت السور العظيم لحماية أراضيها من هجماتهم بدلاً من الهجوم عليهم وضم أراضيهم لأرضها.

فالفرق في التعامل مع الأغيار بين القوتين المتنافستين اليوم على صدارة وقيادة العالم، يظهر أنه لا يكمن في اختلاف الإيديولوجيات السياسية والاقتصادية، بل في الرؤية العميقة للكون ككل ولوجود الإنسان فيه. حضارة ترى نفسها فيهما مركزًا للإيثار بحكم تميزها الأخلاقي، وأخرى تمجد الأنانية فترى نفسها فوق الأغيار بحكم القوة ومنطق "من غلبت شوكته وجبت طاعته". الأولى تعتبر الدولة امتدادًا للأسرة والمجتمع وهمها تنمية الداخل وحمايته والثانية ترى فيها أيضا أداة قوة للسيطرة وجلب المصالح الخارجية. الأولى تبحث عن التوافق والانسجام مع الآخر، والثانية عن التفوق عليه، ليس فقط وكما ينبغي بالمنافسة الشريفة، بل حتى بالقوة إذا لزم الأمر.

ولهذا الصين لا تُخيف، لكنها تُربك كل من يتشكك في نواياها لما يغفل عن البحث في جذورها الحضارية. قوية ولا تهدد ولا تغزو، لكنها تنهض وتربح بهدوء أسواقاً ونفوذاً ناعماً في كل العالم. من يتتبع تاريخها يجدها حضارة متشبثة بجذور أساطيرها المؤسسة لمنظومة قيمها، وفي قلبها صورة الإنسان الأول كمخلوق من طين تجب معاملته برفق حتى ينهض ولا ينكسر وليس خصماً من حديد ينبغي تطويعه لاستغلاله. هكذا يبدو الأمر لمن يقارن تاريخ الصين بتاريخ كل من الإغريق والرومان والفرس والمغول والتتار وغيرهم من الأمم القوية التي غلبت عليها النزعات البشرية الإمبريالية في تعاملها مع مختلف الشعوب من حولها في غياب نظرة ولو أسطورية للإنسان في الكون تمجد الإيثار على حساب الأنانية الخير ضد الشر.

واليوم تواصل الصين نفس النهج السلمي كي تمدّ نفوذها اقتصادياً معتمدة على الاستثمار في العلوم والتكنولوجيا، وثقافياً عبر التعريف باللغة والفنون في معاهد كونفوشيوس وفي مختلف وسائل التواصل والإعلام مع الدبلوماسية الهادئة. لكن لا يزال خصومها يرون في ذلك دعاية ناعمة أكثر منه انفتاحاً صادقاً، مما يربكهم ويثير شكوكهم حول نواياها رغم غياب التهديد العسكري الظاهر.

فإذا كان لا بد من أن يقود العالم أحد العملاقين: الصين أو الغرب، فالسؤال المشروع هو: أيّهما أنفع للبشرية بمقياس منظومة القيم التي يحملها كلّ منهما؟ الغرب يرفع راية الحريات الفردية لكنه كثيراً ما اختزلها في حرية السوق والرغبة حتى صار التحرر يُفهم أحياناً كتحلل من أي ضابط، ولو كان أخلاقيًا أو إنسانيًا، فضلاً عن تورطه المتكرر في حروب عدوانية دامية باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان.

أما الصين، فرغم ما يُؤخذ على نظامها من صرامة سلطوية وقمع للمعارضين، فهي تُدار بثقافة كنفوشيوسية ضاربة في القدم، حيث ترى في السلطة لا مجرد حاكمة بل خادمة للشعب، مسؤولة عن استقراره، وموكولة بصون وحدة الجماعة أكثر من الفرد. وهو ما طبع سلوك المجتمع الصيني نفسه الذي لا يُجاري بسهولة المفهوم الغربي للحرية أو المعارضة. والأهم من ذلك وعلى ما يبدو أن هذه الثقافة الكنفوشيوسية، في رؤيتها للآخر، وبالمقارنة مع الغرب، تخلو من النزعة العدوانية والطمع في السيطرة، وتقوم على مبدأ التفاهم والتعاون المتبادل، لا على الهيمنة أو الاستعلاء، ما يجعل الصين، كما يبدو، تميل إلى بناء الشراكات بدل الاصطفافات.

والأفضل من كل ذلك، لمَ لا يُبنى نظام عالمي جديد قائم على محافل دولية نزيهة، كالجمعية العامة للأمم المتحدة؟ محافل تكون فيها السيادة للمساواة بين جميع الدول، صغيرها وكبيرها، غنيها وفقيرها، قويها وضعيفها، لكل منها نفس الوزن ونفس الصوت عند كل اقتراع، ومن دون أي امتياز كالفيتو يُمنح لقلة دون سواها. محافل تُحل فيها النزاعات بمنطق الحق وسيادة القانون، لا وفق رغبات الأقوى ومصالحه، وتُصان فيها كرامة الإنسان من دون تمييز، ليس استناداً إلى تصور ثقافي واحد، بل انطلاقاً مما تتقاطع فيه الثقافات جميعاً من قيم العدل، والرحمة، والتوازن بين مصالح كل دولة ومصالح الإنسانية جمعاء.. صحيح أننا نحلم... ولِمَ ل ا؟ فقد كان وسيظل الحلم هو الخطوة الأولى نحو كل تقدم.